مبادئ ممارسة التفسير العلمي

الدكتور
عبد الغفور محمود مصطفى
الأستاذ المساعد بقسم التفسير

مبادىء ممارسة التفسير العلمى

الدكتور

عبد الغفور محمود مصطفى

الاستاذ المساعد بقسم التفسير

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحابته وسائر أحبته إلى يوم الدين (أما بعد) .

فقد أنزل الله تعالى كتابه الحكيم هاديا إلى سعادة الدارين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حاملا الدليل على كونه من عند الله تعالى ، معجزا للثقلين ، باديا وجه إعجازه بالجديد فى العصور .

وظهر فى هذا العصر مصطلح (التفسير العلمى) والمقصود به التفسيرات التى تكشف فى بعض الآيات معانى وإشارات لم تكن معروفة من قبل ، ولا كان فى الإمكان معرفتها ، لأنها نتيجة ماتم من كشف علمى وتقدم فيما يسمى بالعلوم الحديثة . وصارت هذه المعانى والإشارات العلمية القرآنية وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم . وقدمت لنا الكتابات فى هذا التفسير العلمى ماهو حق ، واشتمل بعضها على ماليس كذلك .

وقرأت ماتيسر لى من تلك الكتابات بقصد التعرف على أسباب مجانبة الصواب ، وعلى المبادىء التى حكمت والتى ينبغى أن تحكم تلك الكتابات لتكون بحق تفسيرا علميا لبعض آيات القرآن الكريم كاشفا عن هذا الوجه من الإعجاز الذى هو من أنفع مايكون لأبناء هذا العصر حيث يدخل عليهم من الوجه الذى يستهويهم فيدلهم على إعجاز القرآن وعظيم هداه وكونه النور المبين الذى لا يصدر إلا عن الله تعالى .

والذى سوغ — ويسوغ — لنا قبول مايقبل من ذلك التفسير العلمى ، دون أن نعتبره (تزيدا) على القرآن الكريم هو أن المعانى القرآنية لم تنحصر فيما قاله الأقدمون ، وقد علمنا عدم الحصر هذا مما يأتى :

قال سلفنا[١] وعلماؤنا[٢] (إن القرآن لا تنقضى عجائبه) وما ذلك إلا بازدياد المعانى باتساع التفسير .

وما تلك المعانى العلمية القرآنية الإعجازية إلا من عطاء الله تعالى ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى جحيفة قال : قلت لعلى : « هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله ؟ قال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن »[٣] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أنزل فى هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شىء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن »[٤] .

« وقال ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى »[٥] .

ولذلك اتسعت التفاسير وتفننت مستنبطات معانى القرآن بما رزقه الذين أوتوا العلم من فهم فى كتاب الله تعالى[٦] .

وقد توصلت إلى أن ممارسة التفسير العلمى (الصحيح) ممارسة سديدة

كانت وتكون برعاية المبادىء الآتية . وكما أنها للتفسير العلمى هى أيضا لكل فهم جديد .

ومن خلال ما أكتبه عن كل مبدأ يتضح أن الصواب كان فى مراعاته أو الخطأ كان من غيبته . وأسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى والتسديد والقبول آمين .

١ — قصد بيان هداية القرآن وإعجازه وغرس هدفه :

فلا داعى لمثل ما أورده الشيخ طنطاوى جوهرى — فى تفسيره — عن الفيل كيف يصاد ، وأن (البصطرمة) من لحمه وكيف يفترس قانصه إذا أخطأه وحكاية فيل وخياط وأين تعيش الفيلة إلخ[٧] .

فما يذكر من مسائل العلوم الحديثة يذكر لا لأنه التفسير وكأن القرآن لم يفسر قبله ولا لأنه المقصود للقرآن فقط بل لبيان أن القرآن يهدى به ولا يصادمه ، ولتعميق الشعور الدينى لدى المسلم[٨] ، ويذكر على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة ، ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون الذى سخره الله لنا ، انتفاعا يعيد الأمة الإسلامية مجدها[٩] .

وهنا أذكر أن العلم الحديث قد يكون لبيان حقيقة المعنى القرآنى ، أى تفصيلا لإجماله ، فمثلا معرفة حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان (١٠) تأتى من معرفة علم الهيئة ، فيذكر منه مايوضح هذه الحقيقة .

وقد يكون لمعرفة كمال المعنى ، فمثلا معرفة كمال معنى قوله تعالى : (فى أى صورة ما شاء ركبك)(١١) تأتى من معرفة التشريح[١٢] .

وقد يكون لتصحيح المعنى والتذكير بوجه الصواب ، قال العقاد — بخصوص كروية الأرض وانبساطها معا — المشار إليه فى مثل قوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطا)(١٣) : « فالكشف العلمى الحديث يفيد

الباحث العصرى فى تصحيح معنى البسط ، ويذكره أن نقيض البسط هو القبض وليس هو الاستدارة الكروية ،(١٤) .

أقول كل هذا هنا لأن مما لاشك فيه أن من رغبة القرآن الكريم أن نتصور حقائق معانيه بقدر الطاقة ، وأن يكون تصورنا صحيحا ، وكاملا ، وواعيا . [وتعامل السنة الثابتة بكل هذه المبادىء فى الكشف عن معجزاتها العلمية] .

٢ - استحالة التناقض بين بعض النصوص وبعض :

وهذا مقرر فى نوع (المشكل وموهم الاختلاف والتناقض) من أنواع علوم القرآن ، لكن أذكره للإشارة إلى أن العلم الحديث واجه أمثلة جديدة وعليه أن يضيف الحلول المطلوبة . فمثلا ثبات الجبال المشار إليه فى مثل قوله تعالى (وألقى فى الأرض رواسى)(١٥) وعدم ثباتها المذكور فى قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب)(١٦) لم يكن مشكلة لما أن الزمان مختلف فالثبات قبل القيامة وعدمه قربها ، ثم لما قال العلم الحديث بأن الثبات مع سيرها كسير السحاب فى زمن واحد كانت فى الظاهر مشكلة وكان الحل أنها ثابتة فى محلها من الأرض سائرة بسير الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ، ولا إشكال ، ومثل ذلك كمثل رحا تدور وعليها كتلة صخر وهذه لاتتزحزح ولا تسقط وهى تتحرك بحركة الرحا ، وثباتها راجع إلى أن الحركة حركة رتيبة معنية مقدرة بقدر يبقى معه ذلك الثبات ، وان شئت فضم إلى هذه الصورة تقدير أنك تحمل الرحا الدائرة وعليها الكتلة الثابتة والجميع فى ساقية (أرجوحة) من التى تعلو صناديقها وتهبط ، فهذه حركات متعددة فى جهات مختلفة فى وقت واحد مع ثبات للكتلة - وحركات - فى نفس الوقت .

وفيما سبق مثال صالح من بسط الأرض وكرويتها ، فإنه لاتناقض بينهما ، فإن البسط ضده القبض لا التكور ، وليست الأرض منقبضة عنا .

فإن بدا لأحد تناقض فى شىء من النصوص فمن سوء فهمه أو تقصيره فى البحث أو نقص فى العلم(١٧) .

ولو بقى مشكل على إشكاله أو موهم على إيهامه بعد بذل الوسع لكان الموقف الإسلامى التفويض إلى الله تعالى ، ثم مواصلة الجهود عسى أن تفتح أبواب التوفيق ، ولو بالتأويل المقبول(١٨) .

[ومثل ذلك يقال فيما تساوت درجة ثبوته من الأحاديث المقبولة . بعد استيعاب وتطبيق مقررات التعادل والتراجيح المفصلة فى كتب الأصول الفقهية والحديثية] .

٣ - استحالة التناقض بين حقائق العلم وبين النصوص التى اجتمع لها كل من قطعية الثبوت وقطعية الدلالة :

وذلك لأن الجميع مرده إلى الله تعالى(١٩) : فمثلا قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)(٢٠): الفلك هو المجرى الدائرى الذى يسبح فيه الكوكب وضمير الجمع فى (يسبحون) لثلاثة سبقت هى الأرض فى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها)(٢١) والشمس والقمر فى (والشمس تجرى)(٢٢)، و(والقمر قدرناه منازل)(٢٣) والآية المذكورة : فدل ذلك على أن الأرض متحركة سابحة فى فلك . وعمل قوم على إخراج الأرض من مرجع الضمير أو على التصرف فى القول حتى يكون مرجعه شيئا آخر ، فكان هذا منهم مصادمة لظاهر الآية بدون وجه حق ، ودعاهم إلى ذلك مايعتقدونه من أن الأرض ثابتة - وهو مذهب القدماء من علماء الهيئة ونقله الفارابى فى مؤلفاته العربية وتبعه ابن سينا وأخذ به فلاسفة الإسلام واعتقدوا ذلك ورسخ فى عقولهم وأقاموا عليه مايرونه أدلة صحيحة برهانية . وهذا التناقض مستحيل ، وماعرف من النص من حركة الأرض - مع بعض الأدلة القرآنية الأخرى على حركتها - أمر يقينى ومتقرر من القرآن فى ضوء القواعد الأصولية والتفسيرية فى بعض المراجع بالتفصيل

والصحيح والصواب هو المذهب الأول (حركة الأرض) كما أخذ من الآية - ومعها غيرها إن شئت - وكان فيثاغورس ومن تبعه قائلين بحركتها، وهو المذهب الذى يوافق ما يؤخذ من الآية اليوم وقد أخذ به علماء الهيئة الجديدة وأثبتوا ذلك ببراهين عدة بينوها فى كتبهم. وتبين فساد مذهب السكون. واعلم - فى الحقيقة والواقع - أن الدلالة القاطعة والحقيقة العلمية الراسخة المتعارضتان شيء لا وجود له (٢٤). ولو فرض لقلنا إن الحقيقة أكبر مما يعلمون(٢٥) وإن كان قومى يقولون فى هذه الحالة بتأويل النصوص(٢٦).

٤ — أن يكون التفسير فى ضوء القوانين المستندة إلى الأصول الإسلامية:

لا النظريات التى لم تبلغ درجة الحق الذى لا يزول، اللهم إلا للحكم عليها بالصحة أو البطلان إذا وافقت القرآن أو خالفته(٢٧)، ولا القوانين التى تخالف الأصول الإسلامية.

ومن الاستناد إلى الأصول الإسلامية أن يقال: إن الأرضين أجسام منفصلة لا طبقات متصلة مجموعة فى أرضنا هذه فقط، وتفصيل ذلك فى قول الغمراوى: «إن (أل) فى الأرض هنا(٢٨) هى حتما للجنس لا للعهد، بدليل قوله (مثلهن) والسموات السبع متعددة، ليس فى ذلك شك. فلابد أن تكون الأرضون السبع متعددة على نفس النحو والنمط، لتتحقق المثلية المنصوص عنها فى الآية، لا أنهن سبع طبقات فى أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون. فأرضنا واحدة، وليس يفهم العلم ولا الناس من لفظ الأرض إذا أطلق إلا أرضنا هذه جملة بحذافيرها وطبقاتها كلها، فتفسير الأرضين السبع بطبقات سبع فى هذه الأرض تفسير لا يتفق مع اللغة. ولا مع العلم، ولا مع القرآن، ولا مع الحديث الكريم: «اللهم رب السموات السبع

وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن»(٢٩) لمن يدقق فى فهم الحديث وتوجيهه على المعنى المألوف»(٣٠). فذلك الذى عشش فى أفهام الناس مخالف كما رأينا. وفى نفس الوقت يقال (إنه لا خوف على الحقيقة العلمية مادام العلم يطبق فروضه على الواقع ويمحصها بالتجربة والاختبار(٣١)، فليست الفروض (العلمية) كالفروض الخيالية البحتة، وإذا ترجح الظن بصدق نظرية فلا أرى بأسا بتقديم مدلولها بشرط وصفه بأنه مجرد احتمال إن تلاشى يوما فلأن قائله لم يدرك المعلومة القرآنية لا لتلاشيها هى.

٥ — التزام المنطق الصارم:

فلا يتراخى الباحث فى استنباط. ولا يهمل إشارة: ولا يستكثر نتيجة يؤدى إليها المنطق الصارم وإن عظمت(٣٢).

وعند الاستنباط من القرآن والمطابقة بينه وبين الحقائق العلمية يلتزم هذا المبدأ فيقتضى ذلك إذا تعددت النصوص فى موضوع واحد أن يجمعها الباحث ولا يقتصر على بعضها فى بيان المطابقة(٣٣) وخصوصا إذا كانت هناك فروق بين تلك النصوص.

فمثلا لفظ بناء فى القرآن لم يرد إلا متعلقا بالسماء (والسماء بناء)(٣٤) ولفظ بنيان لم يرد إلا متعلقا بما يبنى الإنسان فى الأرض مثل (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا)(٣٥) وهذا كما قال الغمراوى - «أمر له دلالته، وإشارة دقيقة إلى أن هناك فرقا بين طبيعة بناية السماء وطبيعة البنيان فى الأرض، والفرق فيما يبدو لأول وهلة أن البناية فى الأرض متلاحمة الأجزاء، لبنة إلى جنب لبنة. أما السماء فلبناتها الكواكب والنجوم وما إليها، وليس فيها نجم يمس نجما، إلى أن قال «فالأقرب القنطورى مثلا»، يفصل بين نجميه نحو ألفى مليون ميل، وتتم الدورة بينهما فى نحو ثمانين سنة، كأنما هما جسم واحد يدور حول محور له»(٣٦) أليس هذا من عجيب أمر الكتل المتماسكة المتعلق

بعضها ببعض المبنية بناء سماويا ؟ ! أضف إلى هذا أن (بنيانا) أدل على المصدرية منها على (المبنى) و (بنيانا) أدل على (المبنى) منها على المصدرية - فيما أشعر به من المراجعة(٣٧) - فاختير الأدل على المصدرية لما أن التعبير بالمصدر (بنيان) عن المفعول (المبنى) يدل على المبالغة والقوة والإحكام ، ولا شك أن بناء السماء فى تماسكه أقوى من بنيان الأرض بكثير ، فسبحان رب السموات والأرض ومنزل القرآن .

وزينة السماء الدنيا ذكرت على أنها المصابيح تارة ، والكواكب تارة(٣٨) ففهم من ذلك أنهما نوعان من الزينة لاعنوانان لنوع واحد ، فالمصابيح هى النجوم المضيئة بذاتها ، والكواكب هى الأقمار التى تعكس ضوء غيرها ، ولا تضىء بذاتها كما يشير إلى هذا قوله تعالى (الزجاجة كأنها كوكب درى)(٣٨) فهذه الزجاجة - أو هذا الكوكب - يعكس ضوء المصباح وليس بنفسه متقدا(٤٠) .

ومن أراد المزيد وجد(٤١) .

٦ — التيقظ إلى ذلك الأسلوب الحكيم العجيب - فى الآيات الكونية ونحوها - الذى لا يصدم العامة ولا يتحجر أمام الخاصة :

فمثلا : قوله تعالى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)(٤٢) قد فهمه الفلاسفة والمفسرون فى ضوء علم الفلك القديم على أنه جرى للشمس لا من ذاتها بل بفلكها الذى يدور بها حول الأرض فينتج الشروق والغروب ، ومعنى هذا أنه جرى مجازى ، مع أنه لا قرينة عليه فى النص . والحقيقة العلمية الجديدة أن الشمس تجرى جريا ذاتيا - لا مجازيا - فى اتجاه النسر الواقع ، وهو جرى لا علاقة له بالشروق والغروب . أما الجرى المنتج للشروق والغروب فهو للشمس فى الظاهر وللأرض فى الحقيقة والواقع(٤٣) .

فنرى النص الكريم قد أبهم شيئا على جمهور عصر النزول ومن إليهم لئلا يشوش أذهانهم ، فالتشويش مناف لمنهاج البلاغة والإرشاد ، فإنه لو قال - مثلا - : أيها الناس انظروا إلى سكون الشمس وحركة الأرض - ونحو ذلك - لأوقع الجمهور إما فى التكذيب وإما فى المغالطة والمكابرة مع أنفسهم بسبب أن حسهم الظاهرى - أو غلط الحس - يرى سكون الأرض ودوران الشمس من البدهيات المشاهدة(٤٤) .

ولو كشف القرآن لهم اللثام عن ثنايا الحقيقة ليدلهم بها على تقدير العزيز العليم لكان الدليل أخفى عليهم بحسب مدركاتهم وأغمض وأشكل بكثير من المدعى ، وهذا مناف لقاعدة الاستدلال . ثم لأنها من قبيل الكنايات لا يكون معناها مدار صدق وكذب [المقصود هنا كون الشمس تجرى] ، فكان مقتضى الإرشاد والبلاغة تأنيس معتقداتهم الحسية وما شاكلها معلوما تهم الأدبية - لا ليدل عليها بشىء من قبيل الكنايات ومستتبعات التراكيب ، مع وضع قرائن وأمارات تشير إلى الحقيقة لأهل التحقيق(٤٥) .

وذكر الدكتور الغمراوى - رحمه الله - أن للقرآن أسلوبه الحكيم فى مخاطبة الناس على قدر عقولهم من غير مخالفة للحقيقة الكونية فى شىء ، بل إذا آن الأوان وأظهر الله عباده على هذه الحقيقة كان التعبير القرآنى دالا عليها إما تصريحا وإما إشارة وكناية فى اللغة التى أعدها الله لتحمل معانيه .

وهذا إعجاز فى الأسلوب فضلا عن المعنى لا يقدر عليه إلا الله ، ولعل من المهم توكيد أن ليس فى هذا الأسلوب إقرار لباطل معتقد الناس فى الظاهرة الكونية التى تكنى عنها الآية أو الآيات القرآنية ، فالقرآن الحكيم لا يقر باطلا قط(٤٦) ، ولكنه يمهله حتى يزيله ويحل الحقيقة محله ،(٤٧) .

٧ - مراعاة السياق :

الخلق من نفس واحدة : قال تعالى (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) أول سورة النساء : فسره بعضهم بأنه يعنى كل شىء من إنسان وحيوان ونبات وجماد من نفس واحدة أى من ذرة هى فى أى كائن من الكائنات المذكورة واحدة أى تشبه ما فى غيره من الكائنات . وهذا قول فيه زيادة على النص ولم يراع أن الخطاب للناس - فقط - من بنى آدم المبثوثين(٤٨) .

[وليس فى تفسيرات (لواقح) مخالفة للسياق - على ما سيأتى فى المبدأ (١٣)] .

٨ - مساواة التفسير للمفسر :

فلا إفراط ولا تفريط . فلا يزاد فيه على النص - إلا لفائدة ، مع فصل الزيادة وتمييزها وبيان حكمة إغفال النص لها إن أمكن - ولا يترك شىء فى النص بدون تفسير - إلا مع الإشارة إلى سبب ذلك كأن يكون العلم عاجزا عن تفسيره .

فمثلا : قوله تعالى : (ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق)(٤٩) يعلم منه أن سيدنا سليمان عليه السلام فعل هذا بالخيل : مسح على سيقانها وأعناقها ، وكتب البعض(٤٩م) عليه تعليقا فى ضوء علم الطب البيطرى بأن المسح على رأس الحيوان وعنقه يكسبه طمأنينة ويكون ذلك عند إرادة اختباره ويمسح أيضا على ظهره ، فذكر الرأس والظهر فى هذا الاختبار - وليسا فى النص - ونقص السوق ، وفى اختبار آخر وفى حالة مختلفة والقياس النبض كتب بأن المسح يكون على ما ذكر - ولم يورد مسح الأعناق - مع زيادة المسح على عروق الصدغ - بعد أن يجرى الحيوان شوطا مثلا . وهذا

تفريق لمعانى الآية وعدم مساواة ، وذلك مما يوقع القارىء فى (ربكة) وهو يتابع النص ، [وفى المبدأ السابق مثال للإفراط والزيادة] .

(وليس من التفريط أن يكون التفسير تفسيرا ببعض أفراد العام ، بل قد يكون إيراد كل الأفراد مستحيلا إذا كان ينتظر أن يكشف المستقبل عما هو مجهول منها اليوم)(٥٠) وقد قال تعالى : (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)(٥١) ، وقال : (ويخلق مالا تعلمون)(٥٢) .

٩ - أن يكون الاتصال وثيقا بين الحقيقة العلمية والنص :

فينبغى أن يراعى أن يكون المعنى العلمى الصحيح والنص متصلين اتصالا وثيقا ، فلا يكون المعنى مذكورا مع النص لأدنى ملابسة ولا يكون مستبعدا ولا ملصقا بالنص إلصاقا ، فإنه لا يكون من التفسير فى شىء ، وإن ربط بالنص كان برباط ضعيف .

ومما أعده لم يراع فيه هذا المبدأ ذكر بيضاوية الأرض والاستدلال عليها بأن الأرض مشارق(٥٣) ، ولو كانت غير ذلك لكان لها مشرق واحد(٥٤) .

وذكر دورة المطر والربط بينها وبين النص الكريم(٥٥) : (وما أنزل الله من السماء من ماء)(٥٦) .

والقول بأن انكدار النجوم(٥٧) يعنى الاستغناء عن الاستفادة بضوئها بأضواء الكهرباء(٥٨) .

وليس من التفسير فى شىء ما يستطرد إليه الشيخ طنطاوى جوهرى كإيراده حكاية الفيل والخياط ، وكيف يصاد الفيل . وأين يعيش ، وماذا يفعل بقانصه لو أخطأه ، إلخ ، عند تعرضه لتفسير سورة الفيل ، كما سبق فى المبدأ الأول .

١٠ - مراعاة الاستعمالات والمعانى العربية :

وذلك بحسب متن اللغة والمعانى كما ورد فى القواميس - وفيما يلى ما يتيسر من الأمثلة المخالفة لهذا المبدأ ، مع تفنيدها :

قوله تعالى (وأرسل عليهم طيرا أبابيل)(٥٩) فسرت الطير بأنها الجراثيم(٦٠) وهذا كلام فوق طاقة الأساليب العربية(٦١) ، بل لا يستقيم ، لأن المعنى يصير: وأرسل عليهم جراثيم ترميهم بحجارة ، .

وذكر الدكتور السيد الجميلى (الطبيب) أن (أبابيل) تعنى البلبلة ، حيث الإصابة ببلبلة الفكر تبلبل رؤوسهم - وهذا لا أراه يصح له . لأن الباء واللام ليستا مكررتين فى (أبابيل) ، فضلا عن أن الوصف للطير لا لرءوس الكفار المبلبلة .

وقال : إن الحجارة لو كانت من جهنم ما احتجنا إلى الفاء فى (فجعلهم كعصف مأكول) الدالة على التعقيب والفترة ولو قصيرة جدا بين العدوى بالميكروب والعصف المأكول . فالجهنمية تفعل فعلها بلا فترة فكان يقتضى التعبير بواو المعيـــة لا بالفاء الفجائية ، فهى حجارة دنيوية (ميكروبية)(٦٢) .

أقول : ماتخيله من فترة بسبب دلالة الفاء لا يصح له ، وما أوجبه من الفورية لو كانت الحجارة جهنمية ليس واجبا ، بل الفورية والمعية والتراخى - كل - كما يشاء الله يكون ، والجهنميون كلما نضجت جلودهم بدلها الله تعالى وليس فى الآية أن النضج فورى ، أعنى قوله تعالى (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب)(٦٣) ؛ وإذا قلنا ضربه فأوجعه - أو ضربه فقتله - فهل هناك فترة لازمة من الفاء بين الضرب والوجع أو بين الضرب والموت ؟!

وقوله تعالى (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم)(٦٤) أبدى فيه الشيخ محمد بخيت المطيعى تفسيرا محتملا ، وهو (أن تميد بكم) أى لأجل إعطاء المائدة أو لأجل حركة النمو وخروج مافى الأرض من النبات وغيره من القوة إلى الفعل(٦٥) .

أقول : هذا مخالف للغة ، لأن ما أراده لا يتعدى فعله بالباء(٦٦) ، ولأنه لا معنى لأن يقال جعل الله الجبال فى الأرض لكى تميد بالناس وتخرج بهم نباتها وتعطى بهم مائدتها ، أو تتحرك بهم حركة نموها - أقول - فإن ذلك كان قبلهم لا بهم - اللهم إلا أن يقال تعسفا إن الأرض تفعل ذلك بهم أى بسببهم - فتدبر .

[هذا وينبغى الاحتراز من المعانى التى جاءت من تطور الاستعمال وخالفت معانى الألفاظ فى عصر النزول - ولا أقصد المعانى التى جاءت من مكتشفات العلم وتتلاءم مع معانى عصر النزول . كما يأتى فى معنى (لواقح) فى المبدأ الثالث عشر - ينبغى الاحتراز من ذلك فضلا عن المعانى العامية - ومن المضحك المبكى أن يترجم أحد الأجانب لفظ (لباس) فى مثل قوله تعالى (وجعلنا الليل لباسا)(٦٧) - أو يفسره - على أن معناه (سراويل)(٦٨) - فاحترز] .

١١ - مراعاة القواعد النحوية ودلالاتها :

ومما يخالف هذا تفسير نقصان الأرض من أطرافها فى قوله تعالى (أولم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها)(٦٩) . بأنه انفصال القمر عنها(٧٠) .

والمخالفة فى هذا التفسير أنه تفسير بشىء حصل مرة واحدة وهذا لا ينطبق على الفعل المضارع الذى جاء فى الآية دالا على عمل متكرر متجدد ، وهو نقصان من على الأرض بالموت ، كما فى كتب التفسير - وفضلا عن هذا النقصان المضارعى يوجد فعل الإتيان المضارع .

١٢ — مراعاة القواعد البلاغية ودلالاتها :

ومن ذلك أن لايخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام(٧١) .

ونذكر هنا قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)(٧) لنقول : إن المفسرين ـ كالفلاسفة ـ حملوا الجرى على المجاز ، مع أنه لاقرينة ، كما سبق فى المبدأ السادس ، والمقصود أنه لا قرينة تصرفه عن الحقيقة ، فلا نلغى الحقيقة ، ومما سبق فى المبدأ المشار إليه نلاحظ القول بالحقيقة ـ لأنها لم تلغ ـ والقول بالمجاز ، فأقول إنه أخذ بالحقيقة والمجاز معا ، وليس ممتنعا فى الأدب(٧٣) ولا ممتنعا عند الأحناف ومن إليهم لمايلى :

أن نصب القرينة المانعة ـ فى المجاز ـ إنما يشترط فى تعينه(٧٤) دون احتماله، فإذا تضمن نكتة ساوى الحقيقة فيمكن الحمل عليهما نظرا إلى الأصالة والنكتة(٧٥) . قاله الآلوسى ، وهو حنفى كما نعلم ، لكن هذا ـ كما هو باد ـ لا علاقة له باختلاف المذاهب (الفقهية) .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى الحنفى مفتى الحرم المكى [ت ١٠٣٧ هـ] :

« فإن قلت : إذا صح فى الكناية إرادة اللازم والملزوم معا كان ذلك جمعا بين حقيقتين أو بين حقيقة ومجاز ، وقد منعه الأصوليون قلت : أما على رأى من يجوز ذلك ـ كالشافعى ـ فلا ضير فيه ، وأما على رأى من يمنعه كأئمتنا الحنفية فذلك غير مسلم لأن التعدد هنا ليس فى إرادة الاستعمال بل فى إرادة الإفادة ، واللفظ لم يستعمل إلا فى موضوعه ، وقد يستعمل اللفظ فى معنى ويقصد به إفادة معان كثيرة ولا مانع من ذلك »(٧٦).

فيراعى ذلك ويطبق على جرى الشمس فيقال إنه يراد به معنيان : المعنى الحقيقى . وهو جريها إلى النسر الواقع ، والمجازى ، وهو جريها الظاهرى

الذى ينشأ عنه الشروق والغروب ، وحقيقته جرى الأرض حول الشمس ، كما سبق فى المبدأ السادس . وقد شرحت هذه المسألة ـ القول بالحقيقة والمجاز معا ـ هنا ـ لأنى لم أجدها متداولة ، وأجدها لازمة لتفسير جرى الشمس وخصوصا جريها المجازى الذى لاقرينة له فى النص الكريم ـ بل بلا خصوص بالمجازى ، فقد ظهر لنا أن الأخذ بالمعنى الحقيقى أيضا كان لازما ، بل كان جديرا بتقديمه والبحث لتحقيقه .

[وليكن على البال ماذكرناه آخر المبدأ الأول وآخر المبدأ الثانى بالنسبة إلى السنة المطهرة](٧٧) .

١٣ — القول بكل المعانى التى يتحملها النص :

قرر الإمام ابن جنى القول بالمعنيين المحتملين عند العرب حتى لو كان أحدهما ضعيفا(٧٨) .

وتقرر الأخذ بالحقيقة والمجاز معا فى المبدأ السالف .

وذكر الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ أنه قد يراد المعنيان بتعبير واحد(٧٩) .

وقررت ذلك فى كتابى (بحوث فى علوم القرآن الكريم)(٨٠) .

وقال الدكتور الغمراوى بما يصل الحديث بالقديم ، وذلك « ألا يقصر تفسير التعبير القرآنى على وجه واحد إذا تحمل التعبير أكثر من وجه حسب قواعد اللغة التى نزل بها القرآن ، فكل معنى يفيده اللفظ أو التعبير من غير خروج على قواعد اللغة هو معنى مراد لله(٨١) وإن لم يك معلوما للبشرية قبل ، وإفادة الآية القرآنية إياه إرهاص بأن الله سيكشف للبشر عنه ليكون معجزة علمية جديدة للقرآن تثبت من جديد أنه من عند الله »(٨٢) . أمثلة :

دحو الأرض : قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها)(٨٣) يفسر الدحو بشيئين :

الأول أنه بسطها وتمهيدها وتوسيعها ، والثانى جعلها كالأدحية - المكان الذى يعده النعام لبيضه (٨٤) ، أى جعلها فى الشكل العام الكلى كالبيضة ، كما قال عبد الرزاق نوفل : « وظل الاعتقاد سائدا على أن شكل الأرض كروى ، وأنها كرة ليست كاملة الاستدارة إذ أن أحد قطبيها أكثر سيولة من الآخر .. إلى أن تمكن العلم الحديث من تصوير الأرض من خارجها فى عصر الفضاء .. ومن الأقمار الصناعية .. ومن عشرات الملايين من الصور الفوتوغرافية وصور الرصد .. من كل اتجاه .. ولكل اتجاه .. للأرض .. أعلن العلماء أن الأرض أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب شكل لها هو البيضة وكل هذه الحقائق العلمية قال بها القرآن الكريم بلفظه الجميل الحكيم : (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها)(٨٥).

الضياء والنور : تأمل بعض العلماء استعمال القرآن للفظ الضياء ولفظ النور فوجده متميزا عن استعمال العرب ، ومشيرا إلى معرفة ليست من معارفهم فى عصر النزول ، وذلك أن الضياء ينسب إلى الشىء الذى نوره من ذاته ، والنور ينسب إلى الشىء الذى نوره مكتسب له من غيره ، وهذا حال الشمس والقمر (٨٦) . فكان قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا)(٨٧) مشيرا إلى ذلك ، فالشمس ضياؤها ذاتى ، والقمر نوره مستفاد من انعكاس نور الشمس عليه .

ثم جاز أن يكون (ضياء) فى الآية جمع ضوء ، كثياب وثوب ، ، فيكون إشارة إلى ألوان الطيف ، فإنها مجموعة فى ضوء الشمس ، أما القمر فناسبه لفظ (نورا) فى الآية مفردا ، لأنه لون واحد (٧٨) .

الرياح لواقح : قال تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين)(٨٩) : فسرت لواقح بأنها تلقح الشجر والسحاب أى تصب الماء فيهما (٩٠) وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها

وتلقح السحاب فتدر ماءه (٩١) وتلقح الشجر أى تقويها وتنميها إلى أن يخرج ثمرها (٩٢) وتلقح الشجر والسحاب أى تعمل عملها فيهما (٩٣) . وفى الخازن : « والأظهر فى هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده : (فأنزلنا من السماء ماء) ،(٩٤) . ولما عبر بالأظهر لم يمنع من أن الظاهر أنها تلقح الشجر أيضا لكن يكون التفريع تفريع إنزال الماء على الإرسال مع ملاحظة كونها لواقح للسحاب ودون ممانعة فى كونها لواقح للشجر وإن لم يكن ملاحظا فى التفريع ، وليس التفريع ملغيا له ولا عدم ملاحظة كذلك .

ويظهر لى من تعبير ابن عاشور فى تفسيره التحرير والتنوير أن الإنزال مفرع على الإرسال وحسب (٩٥) . ولا أرى بهذا بأسا . وقد توهم الدكتور الغمراوى أن هذا التفريع يوجب أن المقصود كونها لواقح للسحاب ويمنع أن يقال هنا بأنها لواقح للشجر (٩٦) ، لكن إذا تأملت عبارة الخازن رما ألحقناه بها الآن وما يدعو إليه الدكتور الغمراوى من القول بكل ما يمكن من المعانى علمت أنه وكذا من تبعه (٩٧) لم يمعن النظر . وقال الغمراوى بأن الرياح لواقح للسحاب بمعنى أنها تعمل على سوق السحاب المشحون بالموجب من الكهرباء والمشحون بالسالب بعضه إلى بعض فتتحد الكهربائيتان ويحدث التفريغ الكهربائى فيتكاثف السحاب مطرا وينزل ماءه سقيا للناس (٩٨) . فنرى الرياح لواقح بكل هذه المعانى ، وليس فيها مخالفة للسياق أو مصادمة للتفريع ، فللتفريع من بينها ما يوجهه وسائرها لا يرتبط به ولا يجب أن يرتبط به كما وضحناه .

ظلمات ثلاث : قال تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث)(٩٩) : فسر ابن عباس رضى الله عنه الظلمات الثلاث بأنها ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة (١٠٠) .

والمشيمة هى غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطا به ليقيه وليكون

به استقلاله بما ينجر إليه من الأغذية فى دورته الدموية الخاصة به دون أمه(١٠١) .

ويرى البعض أن الظلمات الثلاث هى الرحم والسلى (كوريون) والرحل (أمنيون)(١٠٢) .

وهى - فى هذين القولين - ظلمة واحدة فى مكان واحد تحيط به طبقات متعددة ، ولهذا كان الرأى الآتى أرجح فى نظر المعلقين على المنتخب فى تفسير القرآن الكريم .

وهو أن الظلمات الثلاث هى المبيض الذى تنشأ فيه البويضة وقناة فالوب التى تمضى فيها البويضة إلى الرحم فلا تصله إلا بعد بضعة أيام قد يقدر لها فى أثنائها أن يخصبها الحيوان المنوى من الرجل ، ، والرحم هو الظلمة الثالثة ، وكان هذا الرأى عندهم أرجح لأنها ثلاث متفرقات فى أماكن مختلفة وفى كل منها يحصل ما أشارت إليه الآية الكريمة : (خلقا من بعد خلق)(١٠٣) ، والخطاب فى الآية الكريمة (يخلقكم..) للجميع دفيفهم منها العامة معنى والأطباء معنى ، وتتعدد الأقوال والفهوم، ويأخذ المفسر بها جميعا وإن ترجح بعضها، فإن الأخذ بها جميعا مقام والترجيح مقام آخر لا يعارضه ، كما حققته فى غير هذا البحث(١٠٤) .

الرتق والفتق : قال تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما)(١٠٥) : « قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك وعطاء وقتادة . كانتا شيئا واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) فصلنا بينهما بالهواء .

والرتق فى اللغة : السد ، والفتق : الشق ،(١٠٦) ، ونحوه للحسن وسعيد ابن جبير(١٠٧) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « كانت السموات رتقا لا تمطر

وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات »(١٠٨) ونحوه لعطية العوفى(١٠٩) .

والمعنى الأول هنا عن عباس ألبس للنص وأعم وأشمل(١١٠) وخصوصا إذا عنى ما أفصح عنه أبو صالح الحنفى ومجاهد من أن السما فتقت سبعا وكذلك الأرض - وإن حالفا ابن عباس - أو أحدهما ، وهو مجاهد - فى أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا ملتزقتين(١١١) ، وكون المعنى الأول هنا بهذه الصفة راجع إلى كونه لم يظهر منه أنه يقصد السماء الدنيا فقط - بخلاف القول الثانى - والمذكور فى الآية (السموات بالجمع) فكان الأول ألبس لهذا الجمع(١١٢) .

والقول الثانى عن ابن عباس ألبس للنص - لا بالنظر إلى جمع السموات - بل - بالنظر إلى الجملة الثانية فى الآية الكريمة وهى (وجعلنا من الماء كل شىء حى) ، (ففصل الله تعالى بين السماء والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ولهذا قال (وجعلنا من الماء كل شىء حى)(١١٣) .

ولعل هذا القول أيضا كان هو الأليق بحال السائل عند ابن عباس رضى الله عنه(١١٤) .

وفى ضوء هذا كله ترى أن ما كشفه العلم عند الغمراوى ومن وافقه ليس قولا ثالثا ، بل هو تفصيل للقول الأول . ونرى الأخذ بتعدد القول فلكل وجهة كما للأخذ وجهة .

وحين تكون الأقوال - فى هذا أو فى غيره - عبارة عن أفراد مندرجة تحت عام يشملها فإنها تكون فى الحقيقة قولا واحدا وما هى إلا تفسيرات متنوعة لشىء واحد ، فليس هناك أدنى إشكال فى تفسير النص بها أو ببعضها(١١٥) .

وقد يكون إيرادها جميعا مستحيلا، وخصوصا إذا كانت أفرادا لم يأت

الزمان ببقيتها بعد كما يشير إليه مثل قوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين)(١١٦) . وقوله تعالى : (ويخلق مالا تعلمون)(١١٧) ، وهـذا واضح(١١٨) وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى آخر المبدأ (٨) .

١٤ — مراعاة ماقاله المفسرون:

فلا يخالف صاحب المعنى الجديد إجماعا ولا يبطل معنى يمكننا قاله مفسر ولا يقتصر على المعنى الجديد(١١٩) ، بل يضمه إلى المعنى المجمع عليه على نحو مارقع فى تفسير(١٢٠) (دحو الأرض) آنفا ، أو يضمه إلى ما اتجه من تفسيرات المفسرين ، نحو ما مر فى المبدأ (١٣) .

فالمعانى الأولى التى تفوز بأولويتها بالنص هى ما عرفه العرب وحملة الشريعة .

وإليك أمثلة - تجد الواحد منها بعد الواحد لا يصح فى نفسه أو يستبعد أو يبطل صاحبه به ما سبقه من صحيح أو يراه هو الذى يقال به لا بغيره فى عصر معين . وقد يكون العيب فى بعضها مضاعفا من عدم مراعاة بعض المبادىء الأخرى :

خاتم النبيين : قال تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)(١٢١) : قرئت (خاتم) بكسر التاء و (خاتم) بفتحها ، والفتح قراءة عاصم وحده من العشرة(١٢٢) وفى تفسير ذلك قال ابن جزى :

« (خاتم النبيين) أى آخرهم فلا نبى بعده صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقرىء بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم فهو خاتم . وبالفتح بأنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم »(١٢٣) .

فمآل القراءتين إلى معنى واحد . وهناك معنى ثان فى قول ابن خالويه

ذكره حجة لقراءة الفتح ومع ذلك تضمن كلامه أن الكسر لغة إلخ قال : « والحجة لمن فتح : أنه أخذه من الخاتم الملبوس ، لأنه جمال ، وفيه أربع لغات : خاتم وخاتم وخانام وخيتام (١٢٤) ، فهو صلى الله عليه وسلم - بهذا المعنى الثانى - جمال الأنبياء وزينتهم .

والمعنى الأول مجمع عليه ، وإنكاره كفر(١٢٥) ، أما الإضافة إليه فجازت وجاءت كما رأينا فى كلام ابن خالويه .

وجاء المعنى الثانى فى كلام للبهائية مقصودا به عندهم الاقتصار عليه وإلغاء المعنى الأول به وزعموا أن قراءة الفتح - وهى لواحد من العشرة - أولى أو أرجح أو هى المعتمدة دون قراءة التسعة ، وما هذا إلا لبناء رأيهم المنهار على الكذب بإمكان ومجىء نبى أو أكثر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم(١٢٦) ، فكان ترجيحهم طيشا واقتصارهم تقصيرا ورأيهم وإلغاؤهم للمعنى الإجماعى كفرا بواحا وكل أمرهم تنكيسا وقلبا للأوضاع .

آيات فى المنافقين : قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من

الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) [البقرة ٨ - ٢٠] .

الصيب المطر . المقصود الأول من هذه الآيات الكريمة المنافقون فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود الثاني المنافقون فى كل العصور ومنها هذا العصر أو نقول إن المقصود المنافقون فى كل زمان ومكان ويدخل فى مقصودها دخولا أوليا منافقو العهد النبوى .وقد تأملها الشيخ الغمارى (١٢٦)م تأملا جيدا وطبقها على منافقى هذا العصر تطبيقا حسنا واضحا ، لكنه قرر أنها نزلت فى ملاحدة هذا العصر وحدهم وشرح ذلك من عدة وجوه ربطها بنصوص الآيات وفى نفس الوقت منع الارتباط بين نصوص الآيات ومنافقى عصر النبوة منعا مشروحا وقال فى أثناء ذلك: ، فأقسم بالله أن الله تعالى ما أراد بالآيات الكريمات إلا هؤلاء المارقين وأنه لو رآهم المفسرون من السلف لقطعوا بذلك ورجعوا عن تنزيلهم الآيات على منافقى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ،(١٢٧) . ولست معه فى ذلك - لما سيأتى - وإن كان جعلنى بشرحه أقول إن الآيات الكريمة نزلت فى منافقى عصر النبوة فهم سبب النزول لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فزادت الآيات أوصافا للمنافقين لتكون عامة لهم فى كل زمان ومكان كاشفة عن عوارهم حتى صارت أوضح فى قصدها لملاحدة هذا العصر(١٢٨) . فهذا العموم له أفراد منها جماعة أو جماعات عصر النبوة ومنها ملاحدة هذا العصر ، قال سيدنا سلمان الفارسى رضى الله عنه فى تفسير هذا : « لم يجىء هؤلاء بعد »(١٢٩) يعنى لم يجيئوا كلهم بل جاء بعضهم ويكونون قد جاءوا كلهم إذا انتهت الدنيا . ، قال ابن عطية : معنى قوله : أنهم لم ينقرضوا بل يجيئون من كل زمان .(١٢٩) ، قال ابن عاشور: « يعنى أن سلمان لا ينكر ثبوت هذا الوصف لطائفة فى زمن النبوة ولكن لا يرى المقصد من الآية حصر المذمة فيهم بل وفى الذين

يجيئون من بعدهم (١٢٩) ، فالأمر - كما قال ابن عاشور (١٢٩) - مع زيادة طفيفة - أن كل من جاء بعد منافقى عصر النبوة على مثل صفاتهم - أو على مثل ما فى الآيات الكريمة - فهو لاحق بهم وداخل فيما نعى الله عليهم ومقصود فى هذه الآيات .

وقد جاز أن يكون الكلام الواحد مقصودا به طوائف بينها فروق وينطبق كله على بعضها وبعضه على بعضها الآخر أو يتوزع انطباقه فينطبق بعضه على بعضها وبعضه الآخر على بعضها الآخر ، وإذا كان الأمر كذلك (١٣٠) قلنا للغمارى إن هذه الآيات ينال منها منافقى عصر النبوة ما ينطبق عليهم وتطبق كلها - أو بحسب الحالة - على ملاحدة العصر. فعليه أن يراعى ما قاله المفسرون .

عذاب من تحت الأرجل : قال تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) (١٣١) : قال البغوى : « يعنى [من تحت أرجلكم] الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون . وعن ابن عباس ومجاهد : عذابا من فوقكم : السلاطين الظلمة . ومن تحت أرجلكم العبيد السوء »(٢٣٢) .

وهذا التفسير المروى عن ابن عباس ومن وافقه من المفسرين لم يراعه الغمارى بل ادعى بطلانه وفسر العذاب من فوق ومن تحت بالطائرات الرامية بالقنابل والألغام والغواصات وقال : « ولما لم يكن فى زمن المفسرين شيء من ذلك فسروا العذاب من فوق بالملوك ومن تحت الأرجل بالعبيد . ولا يخفى بطلانه ولكنهم معذورون لأنهم لم يروا ما يصلح أن تطبق عليه الآية كما رأينا نحن والحمد لله (١٣٣) ، وعلى هذا الكلام مؤاخذات : أولا أنه قصر نظره على ما فى قول ابن عباس من معنى ولم ينظر إلى ما فعل

بقوم شعيب ، وما إلى ذلك ، ثانيا زعم أن ذلك القول لا يخفى بطلانه وهو لا يخفى صوابه وزعمه هو الباطل ، ثالثا عذر المفسرين فى مجانبة الصواب بزعمه وهم لم يجانبوه ولا أعذره فى هذا ، رابعا علل عذرهم بأنهم لم يروا وليست الرؤية شرطا فى إصابة التفسير ولا عدمها عذرا ، وهذا خامس . سادسا تكلم عن نفسه بضمير الجمع كأنما يعظم نفسه - وإن كان له جواب ، ولعله لا يعرفه . سابعا كان عليه ما لم يفكر فيه وهو الجمع بين الأقوال وإضافة الجديد إلى القديم ومراعاة الأقوال الصائبة وخصوصا قول حبر الأمة رضى الله عنه والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

والصواب أن النص عام وأن من أفراده الرجفة والخسف والظلمة وأئمة السوء وعبيد السوء والطائرات والغواصات وما إلى ذلك - ولا يخفى ما يكون من فوق وما يكون من تحت - كالغرق والريح والحاصب وإلى آخر ما قال المفسرون وما سيكون .

من مثل الفلك ما يركبون : قال تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) (١٣٤) : جاء فى تفسير البغوى أن هذا المثل قيل هو السفن الكبار ، وقيل الصغار - التى عملت بعد سفينة سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام وعلى جميع الأنبياء ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « يعنى الإبل ، فالإبل فى البر كالسفن فى البحر » (١٣٥) .

وقال الدكتور الغمراوى بأنه ينبغى أن يكون المقصود فى عصرنا الطائرات » (١٣٦) .

فأقول - مبدئيا - لا ينبغى الاقتصار على هذا أو ترجيحه ، فإن ما سبق من قول السلف صحيح والآية قائمة فى جميع العصور به .

وقال الشيخ الغمارى بأن ما هو من مثل الفلك المشحون هو (بابور

السكة الحديد والسيارات التى تحمل الركاب بضائعهم ، وقال إن هذا هو المراد من الآية جزما ، وإن حملها على الإبل باطل مقطوع ببطلانه . وشرح كل ذلك بما رآه (١٣٧)

وإنى أضم القول الجديد للغمراوى والغمارى إلى ما قال السلف ، وأكتفى فى انتقاد هذا الأخير وترجيح قول من قال إنها الإبل بما يلى - علما بما سبقت الإشارة إليه من أن الترجيح مقام والقول بالمعنيين مقام آخر - فأقول :

أولا : كيف تكون الطائرات وما إليها آية لهم وهم العرب والمسلمون الأولون وهم المقصودون أولا بحكم السبق الزمنى بلفت النظر إلى الآيات ، ولم تكن آية الطائرات وما إليها قد وجدت ؟! .

ثانيا : التعبير بالماضى (حملنا - وخلقنا) الذى انسحب على الماضى وينسحب على المستقبل لا يتمحض للمستقبل ويعزل عن الماضى من غير حجة توجب ذلك .

ثالثا : لم يؤت بفعل الخلق فى جانب الفلك ، لأن الفعل (خلق) مختص بالإيجاد الإلهى دون صنع الناس ، وجىء به فى جانب يختص به دون صنع الناس وهو الإبل فلا صنع للناس فيها ، فهى المرادة (١٣٨) بقوله تعالى : (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ثم لا يمتنع بضرب من التوسع الذى ألفناه فى التفسير أن يلحق بها ما يكن إلحاقه من سيارات ونحوها . فلا بد من مراعاة هذا المبدأ وغيره .

المرسلات : قال تعالى فى أول سورة المرسلات : (والمرسلات عرفا) عرفا أى متتابعة ، وهى الرياح عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة (١٣٩) وأبى صالح (١٤٠) ، وقال ابن جزى : « والأظهر فى المرسلات والعاصفات أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة » (١٤١) .

وجاء الغمارى ليقول إنها الطائرات الحربية بكل حركاتها وأفعالها فى الآية وما بعدها فى ست آيات (١٤٢) . والعيب فى هذا أنه اقتصر على ما قال بل جعل صنع الناس كصنع الله تعالى يحلف الله تعالى به - ولا أقول بهذا ، فلا أضيفه إلى ما ورد عن السلف رضوان الله عليهم .

تعطيل العشار : قال تعالى : (وإذا العشار عطلت) (١٤٣) ، قال ابن كثير : « . . . المقصود أن العشار من الإبل وهى خيارها والحوامل منها التى قد وصلت فى جملها الشهر العاشر - واحدتها عشراء ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شىء فيها بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل وهو أمر يوم القيامة وانعقاد أسبابها ووقوع مقدماتها » (١٤٤) . وذكر أقوالا فى تذكرة القرطبى وأنه رجح أنها الإبل وأنه عزاه إلى أكثر الناس ، ثم قال : « قلت : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم » (١٤٥) ، والكلام إنما هو فى سبب تعطيلها فعن السلف ما سمعت أنه يوم القيامة ومقدماته ، لكن جاء الغمارى ليقول إنه ظهور المواصلات المختلفة ، مما يغنى الناس عن استخدام الإبل فى الأسفار وحمل البضائع فى هذا الزمان (١٤٦) .

وهذا منتقد من جهات : أولا : أنه لم يراع تفسير السلف الذى لا نظنه يمكن أن يبطل ، ثانيا : أنه إن أمكنه ذلك لتفسير العشار بالإبل لا يمكنه إذا فسرت بالسحاب ، وهو تفسير « عن الجبائى وحكى ذلك عن أبى عمرو كما فى مجمع البيان عند الآية وأيضا فى تفسير ابن كثير - مع أقوال أخرى - فلا يمكن للغمارى ما قال مع هذا .

ثالثا : أن الأصل أو المناسب فى السياق أنه ليس تعطيل رفاهية واستغناء عن الإبل بالسيارات والطيارات ، بل يدل على أنه تعطيل فزع وأهوال . فلا نقبل ما رآه الغمارى وخصوصا مع اقتصاره عليه ، وقد كان يجوز قبوله لو تصرف وجمع بين قوله والأقوال السلفية .

حشر الوحوش : قال تعالى : (وإذا الوحوش حشرت) (١٤٧) : أى اختلطت أو جمعت أو ماتت - وكل ذلك قرب القيامة وبومها - وروى ذلك عن ابن عباس وابن كعب وغيرهما رضى الله عنهم - انظر تفسير ابن كثير وغيره ، وهى تحشر إلى الله تعالى لإنهاء الدنيا ولسؤالها .

والحاشر لها هو الله تعالى - أو - بعبارة أخرى ملائكة بأمره - كما يفهم من التفاسير - ولكن الغمارى يرى أن الحاشر لها اليوم الناس ، يحشرونها فى مختلف الدول إلى البساتين [حدائق الحيوانات] للفرجة [التمتع برؤيتها] (١٤٨) .

فنقول : أولا : أنه لم يراع تفسير السلف ، ثانيا : أن الجو جو فزع وأهوال ، ثالثا : أن الحشر إذا كان هو الاختلاط ، أو كان من معناه الاختلاط كما يؤخذ من كلامه هو فضلا عن أنه يؤخذ من التفاسير فإن حيوانات الحدائق ليست مختلطة بل معزول بعضها عن بعض . وإنما يكون الاختلاط وعدم الخوف من الذئب على الغنم فى وقت أمن ، كما يكون الاختلاط ولا يعتدى ذئب على كبش من شدة الخوف وشغل كل بنفسه يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت . ومن أنصف قدم كل قول قديم أو جعله روحا مخالطا للقول الجديد .

(١٥) وضع القول فى ترتيبه وتجنب الاغترار

فيوضع القول التفسيرى الجديد فى ترتيبه الزمنى وإن أمكن ترجيحه .

وهذا احترام للمعانى الأولى التى عرفها الصحابة وحملة الشريعة - رضى الله تعالى عنهم جميعا .

وهذا من أدب المفسر .

ويجتنب الاغترار وخصوصا بعد أن علمنا أن الحقائق والإشارات القرآنية أكبر من علم البشر جميعا ووجدنا أن للعلماء هفوات .

خاتمـــة :

وليكن على البال ما أشرنا إليه من أن هذه المبادئ لشرح السنة أيضا ، وأنها لكل فهم جديد ولو لم ينشأ عن العلوم التقدمية ، كما فى بعض الأمثلة .

وقد رتبتها هكذا لوجهة لا تخفى على المتفطن . وهو ترتيب يساعد على تعليقها بالذهن . على أنه لما كان المقصود العمل بها جميعا لم يكن الترتيب المعين لازما فيما بينها . وليست الهوامش مقصورة على المراجع .

وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع جدا وافيا بالغرض وأن تكون الأمثلة دالة على أمثالها بسهولة ، كما أرجو أن يكون هذا العمل نافعا لى وللمسلمين دنيا وأخرى .

ولله الحمد فى الأولى والآخرة ؟

الهوامش

(١) انظر (التحرير والتنوير) لابن عاشور ١/٤٥ ط تونس ١٩٨٤ الدار التونسية للنشر .

(٢) انظر السابق ٢٨

(٣) السابق ٢٩ .

(٤) السابق .

(٥) (روح المعانى) للالوسى ٧/١٤٤ . دار إحياء التراث العربى لبنان بدون تاريخ .

(٦) انظر (التحرير والتنوير) ١/٢٨ .

(٧) انظر تفسير (الجواهر) ٢٥/٢٦٢ - ٢٦٣ ط مصطفى الحلبى ١٣٥١هـ .

(٨) انظر (منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير) ١/٢٨٣ تأليف فهد ابن عبد الرحمن بن سليمان الرومى ط ٢ مؤسسة الرسالة ١٩٨٣ م .

(٩) انظر المرجع السابق و(مناهل العرفان) ١/٥٦٩ ط ٣ عيسى الحلبى ١٣٧٢هـ لمؤلفه محمد عبد العظيم الزرقانى .

(١٠) قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) الرحمن : ٥ .

(١١) الانفطار : ٨ .

(١٢) انظر (القرآن العظيم هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين) ٢٥٧ للشيخ محمد الصادق عرجون الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٦ م .

(١٣) سورة نوح الآية ١٩ .

(١٤) (الفلسفة القرآنية) ١٨١ ط دار الهلال ١٩٦٦ م و(مايقال عن الإسلام) ١٧٣ .

(١٥) سورة النحل الآية ١٥ .

(١٦) سورة النمل الآية ٨٨ .

(١٧) انظر (الإسلام فى عصر العلم) للدكتور محمد أحمد الغمراوى ٢٩٩ الناشر دار الكتب الحديثة رقم الإيداع ١٩٧٨/٤٢٤٠ .

(١٨) انظر مواضع متفرقة من مرجع الهامش ١٢ ـ ص ٣٢٢ وما قبلها .

(١٩) انظر مثلا : الإسلام فى عصر العلم ص ٢٢٩ للدكتور محمد أحمد الغمراوى الناشر دار السكتب الحديثة رقم الإيداع ١٩٧٨/٤٢٤٠ .

(٢٠،٢١،٢٢،٢٣) سورة يس الآيات : ٣٨،٣٩،٤٠،٣٣ .

(٢٤) كل هذا مقتبس من كتاب توفيق الرحمن للشيخ محمد بخيت ـ وراجعه ـ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ١٢٢ ط السعادة ١٣٤١ هـ .

(٢٥) للشيخ سيد قطب رحمه الله كلام طيب فى صفحات اقتبس منها الجملة الآتية، قال : « إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . أما ما يصل إليه البحث الإنسانى ـ أيا كانت الأدوات المتاحة له ـ فهى حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهى مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها . فمن الخطأ المنهجى ـ بحكم المنهج العلمى الإنسانى ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية . وهى كل ما يصل إليه العلم البشرى ! » وقال : « ولكن هذا لا يمنى ألا نقتنع بما يكشفه العلم من نظريات ـ ومن حقائق ـ عن الكون والحياة والإنسان فى فهم القرآن ، فى ظلال القرآن : ١/١٨٢ ، ١٨٣ ـ وكلامه كله فى الموضع الذى نقلت منه من ص ١٨١-١٨٤ ط ٧ دار الشروق ١٩٧٨ .

(٢٦) انظر كتاب توفيق الرحمن السابق ص ١٢٢ .

(٢٧) انظر (الإسلام ...) السابق ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ، و (القرآن ...) السابق ص ٢٧٤ ، و (مناهل ...) للسابق ٢/٢٥٤

(٢٨) يقصد الآية الأخيرة من سورة الطلاق (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) .

(٢٩) راجع (تنقيح الرواة بتخريج أحاديث المشكاة) ٢/٩٤ للشيخ المولوى السيد أبى الوزير أحمد حسن المطبعة الأنصارية دهلى ١٣٢٥ هـ نجد الحديث بلفظ آخر لكن لا وقر علينا ونجد أن له مخرجين وأسانيد قال فى بعضها « وإسناده جيد إلا أن عبد الرحمن بن سابط لم يسمع من خالد »

(٣٠) (الإسلام فى عصر العلم) السابق ٢٦٤ ـ ٢٦٥

(٣١) انظر (نظرات فى القرآن) للغزالى ١٣٣ ط ٥ بدون تاريخ دار السكتب الحديثة ما نقله عن (سنن الله السكونية) للغمراوى .

(٣٢) انظر (الإسلام ...) السابق ٣٨١

(٣٣) انظر السابق ٢٩٩ .

(٣٤) سورة البقرة الآية ٢٢ وغافر : ٦٤ .

(٣٥) سورة السكهف الآية : ٢١ وانظر (بنيانه) مرتين فى التوبة ١٠٩ و (بنيانهم) فيها الآية ١١٠ و (بنيانهم) فى النحل ٢٦ و (بنيانا) الصافات ٩٧ و (بنيان) فى الصف ٤ .

(٣٦) (الإسلام ...) السابق ٣٨٢ ـ ٣٨٣

(٣٧) راجعت لسان العرب وأساس البلاغة .

(٣٨) كقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الملك ٥ وقوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة السكواكب) الصافات ٦ .

(٣٩) سورة النور الآية ٣٥ .

(٤٠) راجع (الاسلام ...) السابق ٣٨٩ .

(٤١) انظر مثلا المرجع السابق فيما يتعلق بالسديم والدخان الذى كانت السماء إياه ٣٨٩ ـ ٣٩١ .

(٤٢) سورة يس الآية ٣٨ .

(٤٣) راجع (الإسلام ...) السابق للغمراوى ٢٨٠ ـ ٢٨٣ .

(٤٤،٤٥) انظر ص ١٨٠ ، ١٨٢ من كتاب (إشارات الإعجاز ...) تأليف بديع الزمان سعيد النورسى ط دار الحراب تركيا بدون تاريخ .

(٤٦) قول الغمراوى « قط » مع الفعل المضارع خطأ والصواب استعمال « عوض » معه .

(٤٧) (الإسلام ...) السابق ٢٩٤ .

(٤٨) راجع (اتجاه التفسير فى العصر الحديث) للشيخ مصطفى الطير ٢٦٦ ـ سلسلة مجمع البحوث الإسلامية إبريل ١٩٧٥ وانظر (القرآن والعلم الحديث) عبد الرزاق نوفل ١٥٥ ط الشعب ١٩٨٢ .

(٤٩) سورة ص الآية ٣٣ .

(٤٩) م راجع كتاب (من الآيات العلمية) عبد الرزاق نوفل ٦٢ ـ ٦٤ ط ١ الإنجلو ١٩٦٦ .

(٥٠) راجع (الإسلام ...) السابق ٣٠٠ إن شئت .

(٥١) سورة يس الآية ٣٦ .

(٥٢) سورة النحل الآية ٨ .

(٥٣) كما فى قوله تعالى (ورب المشارق) الصافات ٥ .

(٥٤) فهذا أراه استدلا لا بعيدا لا أرضاه كما رضيه الدكتور داود العطار فى كتابه (موجز فى علوم القرآن) ص ٧١ ط ٢ مؤسسة الأعلمى ١٩٧٥ ،

(٥٥) كما فعله الدكتور عبد الله شحاتة فى (تفسير الآيات الكونية) ص ٧١ - ط دار الاعتصام ١٩٨٠ .

(٥٦) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

(٥٧) فى قوله تعالى (وإذا النجوم انكدرت) التكوير ٢ ،

(٥٨) قاله الشيخ أحمد الصديق الغمارى فى كتابه (مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية) ط ٧ مكتبة القاهرة ١٩٨٧ ص ٢٨ .

(٥٩) سورة الفيل آية ٣ .

(٦٠) انظر تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده عند الاية . وجوز العقاد بدون جزم أنها الميكروبات فى كتابه (الإسلام دعوة عالمية) ٢٠٦ - ٢٠٧ المكتبة العصرية لبنان بدون تاريخ

(٦١) انظر ص ٢٤٣ من (القرآن ...) السابق .

(٦٢) انظر (الإعجاز الطبى فى القرآن) له ص ١٠١ دار التراث العربى بدون تاريخ وتقديم للشيخ الشعراوى له بتاريخ ٢ فبراير ١٩٧٧ أوله .

(٦٣) سورة النساء آية ٥٦

(٦٤) سورة النحل آية ١٥ .

(٦٥) انظر كتابه (تغيير العقول الإنسانية ...) ٧٦- ٧٧ ط السعادة بدون تاريخ - وبطلب من مكتبة ومطبعة محمد على صبيح .

(٦٦) راجعت لسان العرب مادة ماد .

(٦٧) سورة النبأ آية ١٠ .

(٦٨) هذا معنى ما فى الحاشية ١ ص ٢٤٨ من كتاب (إعجاز القران والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعى الناشر دار الكتاب العربى لبنان بدون تاريخ .

(٦٩) سورة الرعد الآية ٤١ .

(٧٠) انظر (التفسير والمفسرون) للذهبى ٤٧٧/٢ الناشر مكتبة وهبه ط ٣ - سنة ١٩٨٥ م.

(٧١) قاله الشعراوى ص ٢٥٩ ، ٣٠٠ فى كتابه (الإسلام ..) السابق .

(٧٢) سورة يس الآية ٣٨ .

(٧٣) راجع كتابى (بحوث فى علوم القرآن الكريم) البحث الخامس ط ١٩٨٥ دار التوفيق النموذجية للطباعة والجمع الآلى.

(٧٤) فى الأصل (تعيينه) وأرى الصواب ما أثبته ،

(٧٥) انظر تفسير (روح المعانى) للآلوسى ١٤٩/١

(٧٦) (عقود الجمان) للسيوطى فى المعانى والبيان بشرح الوشدى المذكور ط٢ مصطفى الحلبى ١٩٥٥ م ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ .

(٧٧) وتطبيقا لهذا المبدأ على بعض الأحاديث- مع بيان خطأ فى تطبيقه -أقول: جاء فى كتاب (مطابقة ...) السابق ص٣٣-٣٤أن الطبرانى فى الأوسط والدارقطنى فى الأفراد رويا من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلا فيقال.لليلتين »قبلا- بكسر ففتح- أى عيانا - فى أساس البلاغة- وذكر أنه جاء فى الصغير من حديث أبى هريرة. « من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة وأن يرى الهلال الليلة فيقال : هو ابن ليلتين » وفى الكبير من حديث ابن مسعود : « من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة » وجعله صاحب المرجع المذكور إخبارا بآلة الرصد وأن الهلال يرى بها كبيرا ، وقال : « فإن انتفاخ الأهلة ليس معناه الانتفاخ الحقيقى » ، نفى المعنى الحقيقى - بدون حاجة- وهذا غير سديد ، والصواب أن يحمل على الحقيقة ، ولا بأس أن تضاف إليها الإشارة المجازية إلى آلة الرصد .

(٧٨) راجع (الخصائص) له ٤٨٨/٢ - ٤٩٢ .

(٧٩) انظر (فى ظلال القرآن) ٢٩٣٥/٢٢ ط ٧ - ١٩٧٨م دار الشروق .

(٨٠) انظر البحث الخامس منه .

(٨١) لم يبق عندى أدنى شك فى صحة هذا الكلام - الاخذ بأكثر من معنى - بعد أن بحثت ذلك فى كتابى الآنف ص ٢٠٣ - ٢٢٩ وأوصى بالعناية بهذه المسألة التى زدتها تأكيدا فى هذا المبدأ بما ليس فى ذلك الكتاب ، وهى فى نظرى جديرة بالاهتمام.

(٨٢) (الإسلام فى ...) السابق ٢٩٤ .

(٨٣) سورة النازعات الآيات ٣٠ - ٣٢ .

(٨٤) راجع - مثلا - لسان العرب مادة دحا .

(٨٥) (دنيا الزراعة والنبات وما فيها من آيات) ٥٢-٥٣ ط ١ كتاب اليوم فبراير ١٩٨٦) .

(٨٦) راجع ص ١٧ من كتابي السابق .

(٨٧) سورة يونس الآية ٥ .

(٨٨) انظر (التوفيق العلمي بين الحضارة والإسلام) ٥٨ لرضوان شافعي للتعافي ط ٢ سنة ١٣٥٤ هـ عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها. وفي لسان العرب مادة ضوء أن ضياء يكون جمعا .

(٨٩) سورة الحجر الآية ٢٢ .

(٩٠) انظر روح المعاني ٣١/١٤.

(٩١) انظر تفسير ابن كثير ٥٠٩/٢.

(٩٢) قاله الحسن وقتادة والضحاك كما في تفسير النيسابوري بهامش الطبري ١٤/١٤ .

(٩٣) انظر الطبري عند هذه الآية .

(٩٤) لباب التأويل له ٥٢/٤ عند الآية .

(٩٥) انظره عند الاية .

(٩٦) (الإسلام في ...) السابق ٤٠٥ - ٤٠٧ .

(٩٧) كالشيخ محمد الغزالي في كتابه (نظرات في القرآن) ١٣٧ .

(٩٨) راجع (الإسلام في ...) السابق .

(٩٩) سورة الزمر الآية ٦.

(١٠٠) انظر (معالم التنزيل) للبغوي بهامش لباب التأويل للخازن السابق ٥٧/٦.

(١٠١) انظر التحرير والتنوير ٣٣٤/٢٣ .

(١٠٢) رأى ذلك الدكتور عفيفي محمود - انظر: المحاضرات العامة الموسم الثقافي الدورة الأولى ١٩٦٠ مطبعة الأزهر ص ٢٠٦ - ٢٠٧ من بحثه بعنوان (علم الأجنة في القرآن) ويقع من ص ١٩٧ - ٢٣١ .

(١٠٣) انظر المرجع السابق والمنتخب المذكور ص ٦٨٤ الهامش ١ .

(١٠٤) أعني في كتابي (بحوث ...) السابق ٨١ .

(١٠٥) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

(١٠٦) (معالم ...) السابق ٢٣٧/٤ .

(١٠٧) راجع تفسير ابن كثير عند الآية .

(١٠٨) ابن كثير السابق .

(١٠٩) انظر السابق .

(١١٠) شرح ذلك الشمول وكونه ألبس للنص الدكتور الغمراوي وتحامل على ابن عباس بسبب قوله الثاني هنا ولم يعلم بقوله الأول هذا - انظره في كتابه (الإسلام ...) السابق ص ٣٠٤ .

(١١١) راجع ابن كثير السابق .

(١١٢) راجع الغمراوي السابق .

(١١٣) انظر ابن كثير السابق .

(١١٤) راجع القصة في السابق .

(١١٥) راجع كتابي (بحوث ...) السابق ص ٣٠٠ - مثلا .

(١١٦) سورة الذاريات آية ٤٩ .

(١١٧) سورة النحل آية ٨ .

(١١٨) وذكره الغمراوي السابق ص ٤٢٨ وأواخر ص ٣٠٠ مثلا .

(١١٩) إلا إذا نص على أنه سيقتصر مع اعترافه بوجود مايصح في المراجع .

(١٢٠) في هامش بصائر ذوي التمييز ٥٨٩/٢ أن المفسرين أجمعوا على أن الدحو بمعنى البسط والتمهيد .

(١٢١) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

(١٢٢) راجع (النشر) لابن الجزري ٣٤٨/٢ ط. مصطفى محمد .

(١٢٣) تفسير ابن جزي ص ٥٦٤ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣ .

(١٢٤) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٦٥ تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم دار الشروق بيروت ١٩٧١ .

(١٢٥) في تعليقه على الموافقات للشاطبي ٣/١ دار الفكر ١٣٤١ قال الأستاذ السيد محمد الخضر حسين التونسي : « قال الغزالي في كتاب الاقتصاد : « الأكثرون على العمل بالإجماع فيما لم يرد فيه نص قاطع » وضرب المثل لهذا بقوله تعالى (وخاتم النبيين) فأنكر عليه بعض المفسرين ورسم هذه المقالة بأنها إلحاد . وما قاله الغزالي مبني على الوجه الذي سيقرره المصنف قريبا من أن الألفاظ لاتدل على المراد منها بوجه قاطع

لتوقف القطع على التحقق من عدم النقل والمجاز والإضمار والتقديم والتأخير والإطلاق والتقييد ونحو ذلك ، وإنما يحصل القطع بمضمونها بعد أن ينضم إليها ما ينفي تلك الوجوه المحتملة ، كأن ينعقد على مدلولها إجماع ، أو تتوارد عليه نصوص أخرى . والمختار على أن الآية نص قاطع بنفسها وعلى أي مذهب فقد بلغ مضمونها مبلغ القطع الذي لا تقدر المكائد التي يخرج التردد فيها عن دائرة الإسلام ، حيث تضافر عليه صريح القرآن والسنة والإجماع » . وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ٢٢/٤٥ عند هذه الآية : « والآية نص في أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لا نبي بعده في البشر لأن النبيين عام ، فخاتم النبيين هو خاتمهم في مدة النبوءة . ولا يعكر على نصية الآية أن العموم دلالته على الأفراد ظنية لأن ذلك لاحتمال وجود مخصص وقد تحققنا عدم المخصص بالاستقراء .

وقد أجمع الصحابة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء ومعرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي فصار معلوما من الدين بالضرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله للناس كلهم . وهذا النوع من الإجماع موجب للعلم الضروري كما أشار إليه جميع علمائنا ولا يدخل هذا النوع في اختلافهم المعروف في حجية الإجماع إذ المخالف في حجيته هو الإجماع المستند لنظر وأدلة اجتهادية بخلاف التواتر المعلوم بالضرورة » وقال : « في كلام الغزالي في خاتمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد صالحة لهذا على مافيه من قلة تحرير . وقد حمل عليه ابن عطية حملة غير منصفة وكلامه إلزاما فاحشا ينزه عنه علمه وديانته فرحمة الله عليهما

ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يثبت نبوءة لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقد إخراجه من حظيرة الإسلام » إلى آخر ما قال .

(١٢٦) راجع أقوالهم في كتاب الدكتورة بنت الشاطئ : (قراءة في وثائق البهائية) ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ط ١ - ١٩٨٦ مركز الأهرام للترجمة والنشر .

(١٢٧) لم أظفر (مطابقة ...) السابق ٦٧ - ٧٠

(١٢٨) السابق ٧٠

(١٢٩) وأشير بهذه المناسبة لأخي المسلمين عموما وأرباب الأقلام والألسنة خصوصا إلى قراءة هذه الآيات مرات وتحليل من تنطبق عليهم بأوصافهم وأساليب

خداعهم للحذر والتحذير منهم وأن يتكرر ذلك فإن الوقاية والعلاج يتكرران مادام الداء بمخاوفه - فهو جهاد مستمر ماشاء الله .

(١٢٩) التحرير والتنوير - وانظره - ١/٣٦٤ .

(١٣٠) بين القاضي ثناء الله البانى بق أن الكلام الواحد يتوزع فيعضه على شيء وبعضه على شيء واستدل على ذلك بآية (والمطلقات يتربصن) البقرة ٢٢٨ وذكر أن الآيات تشمل منافقي عصر النبوة وأهل الأهواء جميعا في العصور المختلفة .

انظر (التفسير المظهري) ١/٣٤ - ٣٥ بالهوامش - ومما قاله : « قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) شامل لاثنتين وسبعين فرقة من أهل الأهواء ... » وعلق عليه قائلا : « مجرد هذا القول وإن كان شاملا لكن بعض المعطوفات عليه مثل قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا) الآية مختص بمن يجوز التقية في مذهبه من أهل الأهواء دون من يجاهر بها - فلا يصح الشمول لجميع الفرق - قلت : عدم شمول بعض المعطوفات لجميع الفرق لاينافي نزول الآيات في جميع أهل الأهواء كما أن قوله تعالى (والمطلقات يتربصن) شامل للرجعيات والبائنات وقوله تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) مختص بالرجعيات [وهو في نفس الآية] . وأيضا المختص ببعض الفرق إنما هو وجوب التقية وأما جواز التقية عند استيلاء المخالفين وخوف القتل فغير مختص » .

فعلى المفسر أن يعرف مثل هذا ويراعي ما قاله المفسرون على نحو ماقررنا .

(١٣١) سورة الأنعام آية ٦٥ .

(١٣٢) (معالم ...) السابق للبغوى ٢/١٤٣ .

(١٣٣) (مطابقة ...) السابق - وانظره - ص ٢٠ .

(١٣٤) سورة يس الآيتان ٤١ - ٤٢

(١٣٥) (معالم ...) السابق وانظره ٦/٨ .

(١٣٦) (الإسلام ...) للغمراوى ٤٤٠ .

(١٣٧) انظر (مطابقة ...) ٦-٧ .

(١٣٨) محتويات (ثالثا) مستفادة من التحرير والتنوير ٢٣/٢٨ إلا من قولنا (ثم لا يمتنع ...) .

(١٣٩) انظر (الجواهر الحسان) للثعالبي ٤/٣٧٦ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بدون تاريخ .

(١٤٠) ذكره من قبله الطبرسي - انظر (مجمع البيان) له ١٠/٤١٥ دار إحياء التراث الإسلامي ١٣٧٩ ق .

(١٤١) انظر تفسيره ص ٨١٧ وسبقت بياناته .

(١٤٢) انظر (مطابقة ...) ١٦ .

(١٤٣) سورة التكوير الآية ٤.

(١٤٤) تفسير ابن كثير ٤/٥٠٧ - ٥٠٨ ط الأولى دار المعرفة سنة ١٩٨٦ تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلى .

(١٤٥) السابق .

(١٤٦) راجع (مطابقة ...) ٧ - ٨ ,

(١٤٧) سورة التكوير الآية ٥ .

(١٤٨) راجع (مطابقة ...) ٢٣ .

والحمد لله رب العالمين ؟

تحريرا فى ١٩٨٧/١٠/٢٣ م

د/ عبد الغفور محمود مصطفى
أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين القاهرة